الفصل السادس

فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة

وهو أنه يأخذ فى تلاوة القرآن، وفى أنواع الذكر من التسبيح والحمد والثناء، وفى التفكر[1] فى عظمة الله سبحانه وتعالى وآلائه، وفى تواتر إحسانه ونعمائه، [وفى بواطن النعم وغوامضها التى لا تُحصى][2]، من حيث يحتسب العبد، ومن حيث لا يحتسب، وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم.

ويتفكّر فى تقصيره عن الشكر فى ظواهر النعم وبواطنها، وعجزِه عن القيام بما أمره به من حُسن الطاعة، ودوام الشكر على النعمة.

أو يتفكّر فيما عليه من الأوامر والنّوادب فيما يستقبل.

أو يتفكّر فى كثيف ستر الله تبارك وتعالى عليه، ولطيف صنعه به، وخفىِّ لطفه له، وفيما اقترف وفرّطَ فيه من الزلل، وفى فوت الأوقات الخالية من صالح العمل.

أو يتفكّر فى حكم الله تعالى فى الملك وقدرته فى الملكوت، وآياته وآلائه فيهما.

أو يتفكر فى عقوبات الله عزّ وجلّ وبلائه، [وفى آلائه][2] الظاهرة والباطنة فيهما، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم:٥]. قيل: بنعمه، وقيل: بعقوباته.

---

(١) جعل الغزالى «التفكُّر» قِسْمًا مستقلاً من ربع المنجيات، وهو الكتاب التاسع من (الإحياء ٤/٤٢٣)، وفيه فصَّل حقيقته وأهميته فى العبادة. ولكن مجامع أمر التفكر ترجع إلى ما ذكره أبو طالب هنا. انظر: الإتحاف ٥/١٣٥، ١٣٦.

(٢) ما بين المعكفات زيادة من: (ك).

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

ومثله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] أى: بأى نعمةٍ تكذبان يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم، وهما الثقلان.

فقى أى نوع من هذه المعانى أخذ فيه فهو ذِكْر، والذكر عبادة[١]. وهو يُخرج إلى الفكر، والفكر يُدخل فى الخوف. والفكر[٢] إذا قَوِىَ صار مشاهدةً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]. ولا يكون مشاهدة إلا عن يقين، واليقينُ روح الإيمان، ومزيده، وفن المؤمن[٣].

وقال بعض العلماء فى تفسير الخبر: «تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة»[٤]: هو التفكر الذى ينقل من المكاره إلى المحابّ، ومن الرغبة والحرص إلى القناعة والزهد[٥].

وقيل: هو التفكر الذى يُظهر مشاهدةً وتقوى، ويُحدث ذِكرًا وهُدى [وزهدًا]، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

---

(١) فى (ك): «والدعاء عبادة».

(٢) فى المطبوعة: «والذكر» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «واليقين روح الإيمان وهو مزيد المؤمن».

(٤) ورد بهذا اللفظ فى الفوائد المجموعة، للشوكانى، ص٢٥١، وكشف الخفا، للعجلونى، ١/ ٣٧٠، والإتحاف ١٠/ ١٦١ وخرجه عن العراقى وغيره، انظر: الإحياء ٤/ ٤٢٣.

(٥) قال الزبيدى: «وإنّما كان التفكّر أشرف العبادات، إذ فيه معنى الذكر لله، وزيادة أمرين: أحدهما: زيادة المعرفة، إذ التفكر مفتاح المعرفة والكشف؛ لأنه إدارة فكر، وتصرف قلب فى معانى الأشياء لدرك المطلوب. فالفكر يدُ النّفس التى تنال بها المعلومات، كما تنال بيد الجسم المحسوسات. وبهذا التصرف القلبى يتدرج إلى فتوح باب المعرفة والكشف الإلهى. والثانى: زيادة المحبة، إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته العلا، ومعرفة قدرته الباهرة، وعجائب أفعاله فى خلقه، فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة». انظر: الإتحاف ٥/ ١٣٦.

ولقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

ومثله: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩ ـ ٢٢٠] أي: يفعلون لما يبقى، ويرغبون فيما يدوم، ويزهدون فيما يفنى.

وقد جعل الله عزّ وجلّ البيانَ يعلمنا اقتضاء الشكر عليه[١]، فقال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقد وصف [الله] أعداءه بعد ذلك [بصفات ضد ذلك][٢]، فقال: ﴿الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١].

وقالت أم الدرداء: كانت أكثر عبادة أبي الدرداء التفكرَ، وقد كان يقول: ما يسرُّني أن أربحَ في كل يوم ثلاثمائة دينار أنفقها في سبيل الله عزّ وجلّ. قيل: ولم ذلك؟ قال: يشغلني ذلك عن التفكُّر.

أو[٣] يعتقد حسن النيات، وينوى جميل الطويَّات فيما بينه وبين الخالق تعالى، وفيما بينه وبين الخلق.

أو يستغفر الله تعالى، ويجدد التوبة لما مضى من عمره، ولما يأتنف من مستقبله.

أو يخلص الدعاءَ بتمسكن، وتضرُّع، وتملُّق، وتخشُّع، ووَجَلٍ، وإخباتٍ، إلى أن يعصمه من جميع المنهيِّ عنه، وأن يوفقه لصالح الأعمال، ويتفضل عليه برغائب الأفضال، وهو في ذلك فارغ القلب، مجرد الهم، موقنٌ بالإجابة، راضٍ بالقِسْم.

أو يتكلم بمعروفٍ وخيرٍ، ويدعو به إلى الله تعالى، وينفع به أخاه، ويعلّم من هو دونه في العلم.

---

(١) في (ك): «البيان نعمة لما اقتضى الشكر عليه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) وردت في (ك): «و» وكذلك في مواضعها التالية.

فهذه كانت أذكار المتقدمين وأفكار السالفين. وقد كان الذكر والتفكُّر من أفضل عبادة العابدين، وهو طريق مختصر إلى ربّ العالمين. ففى أى هذه المعانى أخذ فهو ذاكر لله عزّ وجلّ، فلا يزال كذلك. وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه.

ولا يُستحب له أن يتكلم أو يعمل غير ما ذكرناه من الأذكار. وقد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ومنهم من شدّد فى ذم الكلام من الفجر إلى صلاة الغداة بغير ذكر وبِرٍّ.

وهذه سُنَّةٌ قد خَملَت، فمن عَمِل بها فقد ذكرها[1].

* * *

(١) فى (ك): «وهذه سنة قد جهلت، فمن عمل بها فقد أظهرها».